فعل الكتابة وأسئلتها في تجربة إبراهيم البليهي

ألقيت الورقة في حفل تكريم المفكر الأستاذ إبراهيم البليهي بالقطيف بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ الموافق ٢٨ يناير ٢٠٢٠م

د. خالد الرفاعي
أستاذ مساعد بجامعة
الإمام محمد بن سعود

عرفت الأستاذ إبراهيم البليهي كاتباً ومؤلفاً في وقتٍ مبكر، وكان أول ما شدني إليه الانطباع العام بأنه يقول شيئًا مختلفاً، وأن ثمة أسئلة هادئة وصاخبة يثيرها في كثير مما يكتب، وتأصّل لديّ هذا الانطباع بسبب أنّ ما كان يقوله ـ خاصة في العقدين الأخيرين ـ لا يلقى ترحيباً في الوسط العام.

كانت هذه عوامل جذب أولى، حفزتني على التواصل شبه الدائم مع هذه التجربة، والاطلاع المستمر على ما تنتجه، وحين تعرفت بعد ذلك على البليهي الشخص تأصلت هذه العلاقة وأضحت أبعد وأعمق.

بداية: تعدّ التجربة الفكرية لإبراهيم البليهي واحدة من التجارب البارزة في المشهد الثقافي السعودي، وهي من بين تجارب تعدّ بأصابع اليد الواحدة استطاعت أن تنفذ إلى فضاءات ثقافية عربية عبر أنماط مختلفة من التلقي والتداول، ولأنها كذلك فقد حظيت بتفاعل نخبي لا بأس به محلياً وعربياً، لكنه منقسم ومتباين من الداخل بصورة حادة، ففي الوقت الذي يصفه فيه بعضهم بالفيلسوف والتنويري ومفكر النهضة الثانية لا يرى فيه بعضهم أكثر من ظاهرة

صوتيـة، أو نسـخة معدلـة مـن الطـرح الاسـتشراقي الآفـل.

والطريـف أنّ كلا الفريقـين اعتمـد عـلى سـمة (التكـرار) البـارزة في خطابـه لتقويـة موقفـه مـن هـذه التجربـة إيجابـاً أو سـلباً، وانطلـق منهـا في التعبـير عـن أهميتهـا أو عـدم أهميتهـا، يقـول عـلي العميـم ـ مثـلاً ـ:

«البليهـي مثقـف لا يسـأم مـن التكـرار، ولم أرَ في العـالم العـربي مـن محيطـه إلى خليجـه مثقفـاً يكـرّر أفـكاره بالقـدر الـذي يفعلـه، إنـه يعـدُّ علامـة عـلى النضـوب والإمحـال» (الـشرق الأوسـط، ع: ١٢١٢١، في ٤ فبرايـر ٢٠١٢م)، في حـين يـرى الدكتـور أحمـد العرفـج ـ في لقـاء تلفزيـوني عـلى شاشـة روتانـا خليجيـة ـ أن مـا يميـز طـرح البليهـي تكـراره الفكـرة بدقـة، حتـى تتعايـش في ذهـن الفـرد وأسـلوبه».

هـذان مثـالان صريحـان عـلى اسـتخدام التكـرار في تشـكيل مواقـف متباينـة مـن هـذه التجربـة، وقـد لا أكـون مبالغـاً إذا قلـت إنـه مـن النـادر أن يعـبر أحـدٌ عـن موقـفٍ مـا مـن تجربـة البليهـي دون أن يسـتدعي سـمة التكـرار في هـذا السـياق أو ذاك.

هـذه المفارقـة تشـفّ عـن أهميـة البعـد الفنـي في هـذه التجربة، وأثـره الكبـير في عمليـات تلقيهـا، مـن هنا رأيـت أن أوجه مشـاركتي القصـيرة في هـذا اللقـاء إلى هـذا البعـد ممثـلاً بظاهـرة التكـرار، مـن خـلال المحـاور الآتية:

- التكرار ونمط الكتابة
- التكرار ومضامين التجربة
- التكرار والعامل النفسي.

١. التكرار ونمط الكتابة

من يقرأ منجز إبراهيم البليهي ـ مرتباً ترتيباً تاريخياً ـ يلحظ أنه أمام نمطٍ كتابي خاص، لا يعبر دائماً عن أفكار نهائية أو مكتملة بقدر ما يعكس حالة التفكير فيها، ومن ثم مراحل تخلّقها وتطورها بكل ما يحيط بها من هواجس وقلق وبحث وتأمل.

إنه نمطٌ من الكتابة يجعل فعل الكتابة مصاحباً لفعل التفكير، بل يمكن أن نعدّ الكتابة من خلاله هي عملية التفكير نفسها، وعلى هذا الأساس تبدو مقالات البليهي ومؤلفاته ـ في المجمل - نصوصاً في التساؤل والتفكير ومحاولة الاكتشاف أكثر منها مجالاً للتعبير الجاهز عن أفكار ناجزة، وإن قرّر هو عكس هذا، ففي كثير من مقالاته يشير إلى أنه يكتب عن أفكار استقرت ونضجت، غير أن متواليات التجربة تكشف أنه كان يفكر فيها من خلال الكتابة، أو أنه استهلّ عملية الكتابة حول بعض أفكاره قبل أن يغلق باب البحث فيها، ولا أدل على ذلك من المراجعات والتراجعات التي تعدّ حلقة رئيسة في تجربته، ففي أحد اللقاءات التي أجريت معه يقول:»

كتبتُ قبل سنوات مقالاً بعنوان (سقراط يؤسس علم الجهل) لكن كان هدفي لفت النظر إلى أن المعضلة قديمة، أما الحقيقة فهي أن سقراط لم يؤسس هذا العلم الضروري، وإنما مارس نقد الثقافة التلقائية ممارسة مؤسسة ومؤثرة، لكنه لم يضع نظرية لهذه الممارسة» (صبحي دقوري: التلقائية الإنسانية ـ حوارات مع البليهي وتعريف بفكره، دار التنوير: بيروت، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٨).

نحن هنا أمام نصين، يثبت أحدهما لسقراط تأسيس علم

الجهل، وينفي الآخرُ عنه هذا، وبين النصين مسافة زمنية لا تقل عن خمسة عشر عاماً، ومن خلال قراءة المقالة التي يشير إليها لا يبدو أن القصد من الإثبات (لفت النظر)، بل التعبير بوضوح عن فكرة في حالة قريبة من التبلور، وقد وثق نشر المقالة هذه اللقطة بوصفها جزءًا من حالة التفكير وليست نتيجة لها، فانتهى فعل الكتابة بنشر تلك المقالة واستمر فعل التفكير بعدها قائماً، حتى انتهى إلى نتيجة تخالف ما سبق، فاضطرّ البليهي إلى نص لاحق ينفي فيه ما قرّره في نص سابق.

ويمكن أن أؤكد هذا المثال بمثال آخر من كتابه: «الريادة والاستجابة»، يقول في مقدمته: «كنت أعتقد أن الفلسفة والعلوم وجهود التنوير هي التي أنقذت أوروبا من ذلك الوضع البائس، ولكن اتضح لي أن تلقائية انتظام المجتمعات في التيارات الجارية الموروثة ورفضها التلقائي لأي فكر مغاير، واستحالة تحويل المجتمعات بالإقناع عن تصوراتها إلى تصورات مغايرة بديلة. إن توصلي إلى هذه النتائج عن المجتمعات قد بين لي أن الفاعلية كانت للأحداث الفاصلة» (إبراهيم البليهي: الريادة والاستجابة، ص٩).

فهذا المقتطف يعبر عن نتيجتين، إحداهما ناسخة للأخرى، وهذا يعني أن النتيجة السابقة لم تكن نتيجة مكتملة بل كانت ـ في أحسن أحوالها - فكرة في طور التخلّق والتكوّن، أو لنقل فكرة لم تستكمل شرطها البحثي، لذلك اضطرت التجربة لاحقاً إلى مراجعتها والتراجع عنها.

هو إذن نمط كتابي مركب، يقوم على أساس أن فعل الكتابة يساوي فعل التفكير باستمرار، وربما يكون البليهي الكاتب

السعودي الوحيد الذي يكتب بهذه الطريقة عن وعي وقصدية، إذ يراه ـ في أحد اللقاءات التي أجريت معه ـ النمط المناسب للمشروعات الفكرية التي تتطلب التركيز الشديد والاستقصاء التام حول قضايا محددة (انظر: دقوري، مرجع سابق، ص٣٨). كما عبر في موضع آخر بأنه الأكثر مناسبة للتفكير النقدي؛ مقلاً ـ في هذا السياق - من تقنيات البحث العلمي التي تتعارض مع الفعل الكتابي الذي يقوم عليه هذا النمط، يقول في أحد لقاءاته: «إن أداة الفكر هي التفكير النقدي، أما تقنيات البحث العلمي فيستخدمها المبرمجون بثقافات مغلقة، ولكن هذا الاستخدام لا يدل على اكتساب العقل العلمي مهما حمل الباحث من شهادات. إن الكثيرين يخلطون بين العقل العلمي وتقنيات البحث العلمي بينما هما مختلفان نوعياً» (انظر: المرجع السابق، ص٤٥).

إن الذي يعنينا من الإشارة إلى هذا النمط مناسبته لولادة ظواهر فنية متعددة في تجربة البليهي، لعل من أبرزها ظاهرة التكرار، التي تعكس ـ فيما تعكس ـ حالة تردّده الدائم على أفكاره، واختباره المستمر لها، ومعالجاته الدائمة لالتباساتها، وهي متفرعة ـ كما أسلفت ـ من حالة التفكير المزامنة لفعل الكتابة، التي تقوم في جوهرها على التردّد الدائم على الفكرة بحثاً وتأملاً.

لذلك يمكن القول من هذه الزاوية إن ظاهرة التكرار متصلة أولاً وقبل كل شيء بطبيعة الكتابة التي قامت عليها هذه التجربة، ولعلها العامل الرئيس في دخولها حالة من التفاعل الدائم مع نفسها (تقديماً وتأخيراً، إيجازاً وإطناباً، ذكراً وعدماً، إثباتاً ونفياً)، لتكون الكتابة ـ والحال هذه ـ عملية توثيق

(بانورامي) لولادة الأفكار ونموها وتحولاتها.

ومن المهم أن أشير هنا إلى أنّ هذا النمط الكتابي سلاح ذو حدين، فهو يتيح مساحة جيدة من الحرية للكاتب، وقد يهيئ الفرصة لتفاعل أفضل مع تجربته، لكنه في الآن ذاته يجزّئ الأفكار الكبيرة، ويربك المفاهيم، ويعتّم مناطق من التجربة، فيجعلها بحاجة دائمة إلى مساندة صاحبها، وهذا ما نراه في هذه التجربة، فالبليهي لم ينفك عن المساندة القوية لتجربته، وفي كل مرة يرى أنه بحاجة ملحّة إلى شرح جزء من أفكاره نشر عنها كتاباً كاملاً، وليس هذا وحسب بل ربما نظر إلى بعض أشكال التفاعل على أنها تهديد مباشر لتجربته، ومحاولة لإسقاط قيمتها.

لقد أحكم هذا النمط الكتابي قبضته على تجربة البليهي، مستفيداً من:

١. ارتباطه المبكر بالكتابة الصحفية، واتخاذه إياها وسيلة رئيسة للتعبير عن أفكار جزئية من هذه التجربة، قبل اكتمال ربطها بجهاز نظري ومفاهيمي كامل، وجميع كتبه تقريباً مكونة من مقالات نشرها في الرياض والمعرفة وصحف أو مجلات أخرى.

٢. مقروئِه الواسع، وركضِه المستمر في مجالات معرفية معقدة ومتداخلة، وسياقات كثيرة متنوعة ثقافياً، وممتدة تاريخياً وجغرافياً. وهذا الاستعداد يجعل الكتابة عملية مفتوحة للإضافة المستمرة، خاصة إذا لم تُؤطّر ابتداء بإطار نظري واضح.

٣. طبيعته في القراءة والكتابة التي لا تخضع لنظام دقيق، يقول البليهي عن جانب من نشاطه في الكتابة: «أطرح أحياناً أساس الفكرة ثم أنشغل بغيرها، لكنّ إثارة التفكير

في قضية ولفت الأنظار إليها يفتح أبواب الاستقصاء» (انظر: دقوري، مرجع سابق، ص٥٣)، وهذا المقتطف يعبّر بوضوح عن أنّ مساحات من الكتابة المكونة لتجربته لم تكن تتغيّا التعبير عن معنى نهائي، ولا عن فكرة مكتملة، بقدر ما كانت تحاول فتح باب التفكير فيها، وخلق هالة من الإثارة حولها، تهدف إلى جذب الانتباه، وتوليد الأسئلة.

هذه عوامل رئيسة مكنت لهذا النمط الكتابي في تجربة البليهي، وقد كان لها الأثر في ظهور سمات متعددة حُسِبَت لصالح التجربة آناً وحسبت عليها آونة أخرى، ومنها بل في مقدمتها ظاهرة التكرار.

٢. التكرار ومضامين التجربة

ينهض التكرار بوظيفة معلنة في تجربة البليهي، ألا وهي لفت الانتباه إلى الأفكار الرئيسة أو المحورية، ومحاصرة القارئ أو المستمع بها، يقول البليهي في كتابه: (الريادة والاستجابة):

«إن علينا ألا نمل من تكرار التأكيد على المحاور الأساسية التالية؛ لأنها مفاتيح ضرورية لفهم الإنسان، وإدراك أسباب الأوضاع إيجاباً أو سلباً» (ص١٥)، ثم أخذ يعدّد بعد ذلك المفاتيح التي يرى أهمية تكرارها، وفي مقدمتها أن الإنسان كائن تلقائي. ونلحظ هنا أن هذه الإشارة جاءت في مقدمة الكتاب؛ لتعبر عن القصدية المرتبطة بهذه السمة، وهي إشارة استباقية تعبر أيضاً عن وعي البليهي بأهمية التكرار، وقناعته بالمساحة الواسعة التي يحتلها في تجربته بوجه عام، وفي هذا الكتاب بوجه خاص.

ويكشف البليهي في عدد من مقالاته ولقاءاته أن تكرار

الأفكار الناقدة لثقافة المجتمع جزء من خريطة الحل التي يقدمها في نشاطه الفكري، فكما أن التلقائية تتخلق بالتكرار العفوي فإن محاولات الاستجابة يمكن أن تتولد بفعل التكرار القصدي لجملة الأفكار الناقدة للمجتمع.

إن التكرار من هذه الزاوية متصل بطبيعة الأفكار التي تطرحها هذه التجربة، فهي ـ كما ينص البليهي في مواضع كثيرة من كتبه ـ أفكارٌ مغايرة، تتطلب التأكيد الدائم بوسائل متعدد، منها بل من أهمها التكرار والتأكيد الدائم.

لذلك ينفي البليهي في كثير من لقاءاته أن يكون التكرار في طرحه ضداً للتنوع، وكثيراً ما يشير إلى أن تكرار الكلمات والمصطلحات والمفاهيم في تجربته نابع من طبيعة مشروعه الفكري الذي يتناول محاور الحضارة وإشكالاتها، وهو بهذه الإجابة يثبت التكرار، لكنه يخرجه من عفوية التكرار اللغوي إلى قصدية التكرار المرتبط بالمعنى، أي: بطبيعة الأفكار التي يتناولها.

٣. التكرار والبعد النفسي

يعد البعد النفسي وما يشتمل عليه أحد أهم محركات ودواعي التكرار في هذه التجربة، يقول البليهي في كتابه: (الإنسان كائن تلقائي): «إن التفكير في المأزق البشري قد استغرق كل حياتي، وأخشى أن تبقى الأفكار التي قصدتها دون تفاعل مثمر، إنها معضلة مزمنة، واجهت كل الذين حاولوا أن يقولوا للناس أفكاراً مغايرة لما اعتادوا عليه وتآلفوا معه وتطبعوا به» (ص٢٨) .

يكشف هذا المقتطف عن خشية البليهي من بقاء أفكاره خارج دائرة التفاعل، والتفاعل المثمر تحديداً، ومع أنّه يقرّر في

المقتطف نفسه أن هذه معضلة مزمنة واجهت جميع المفكرين الذين طرحوا أفكاراً مغايرة فإنه عبر بشكل ضمني عن الأثر النفسي السلبي العميق الذي يتركه هذا الوضع في نفسية هؤلاء، خاصة أن أفكاره التي قد لا تحظى بتفاعل مثمر هي ذاتها الأفكار التي استغرق فيها حياته كلها، وحين لا تحظى بالتفاعل الذي يليق بها فإن النتيجة الحتمية لها الموت.. موت المشروع الذي يعادل موت صاحبه.

لقد ألحّت هذه الفكرة على البليهي في السنوات الأخيرة، ففي لقاء أجرته معه الاقتصادية السعودية وصف شعور المبدعين الذين لم يجدوا رد فعل يليق بإبداعهم ولم يجدوا التفاعل والاستجابة البناءة والتقدير والرعاية لهذا الفن أو ذاك، بشعور اليتيم، فقال:

«اللوحة الفنية في أي بلد من العالم تجعل الفنان التشكيلي معروفاً في مجتمعه، وله مكانة كبيرة على المستويين الرسمي والشعبي، بينما الفنان لدينا لا يعرفه أحد، وهذه مشكلة كبيرة من شأنها أن تعزل المواهب وتقوض عملية التلقي بوصفها الاكتمال الطبيعي للعمل الجمالي»، وقال: «في حال غياب هذا الشرط يصبح الفن نوعاً من التضحية التي لا تتجاوز نفسها». (الاقتصادية: الثلاثاء ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٩م).

وكثيراً ما وجه البليهي نقده للسياق الثقافي العام في العالم العربي، مسلطاً الضوء على حالة التلقي، وكيف أنها حالة مُصمّمة في الأصل لتكون ضد التفاعل مع أي فكرة مغايرة، فقال في إجابة طرحتها عليه صحيفة الرياض قبل عشر سنوات:

«ليس في العالم العربي صراعٌ فكري وإنما يوجد مفكرون يكتبون ويتحدثون ولا يقرأ لهم أو يستمع إليهم سوى عدد

محدود من الناس فالصراع الفكري يقتضي التكافؤ في الإمكانات والفرص وهذا التكافؤ معدومٌ تماماً وإنما يوجد تيار واحدٌ مهيمنٌ هيمنة مطلقة ويحتل كل وسائل التأثير باستثناء الصحف وتوجد على هامش هذه الهيمنة المطلقة أصواتٌ فرديةٌ مبعثرة لا تجمعها أية رابطة ولا يلمُّها أيُّ تنظيم ولا ينسق بينها أيُّ تعاون أو تكامل وإنما هي أصواتٌ فردية مشتتة عزلاء وخافتةٌ وغير مسموعة ولا تملك من الوسائل ما تُسمِعُ به صوتها سوى الكتابة في الصحف، فهي الوسيلة الوحيدة المتاحة لهم تقريبا في مجتمع لا يقرأ كما أنه جرى تجييش طوفان العواطف الهوجاء ضد هذه الأصوات الفردية المستنيرة بتوتر واستقطاب ليس لهما مثيل في أي عصر وبسبب ذلك ولأسباب أخرى متراكمة فليس لهذه الأصوات الهامشية أيُّ تأثير حقيقي فاعل لأن الصراعات الفكرية المتكافئة لا تحدث إلا في البيئات الحرة التي تتكافأ فيها فُرص التعبير ووسائله أما الثقافات المنغلقة ذات البُعْد الواحد فهي لا تسمح بالتعددية الفكرية، وبالتالي لا توجد تيارات فكرية متكافئة ومتنافسة ومتلاقحة، وإنما يوجد حصنٌ ثقافي واحد يتحرك الجميع في داخله، فالأصوات الناقدة تنقد همْساً لبعضها لكن الآخرين لا يسمعونها وإذا سمعوها رفضوها وشنَّعوا عليها وشوَّهوها عمداً لصد العامة عنها» . (الرياض ٢٨ يناير ٢٠١٠م - العدد ١٥١٩٣) .

وفي سياق آخر يقول :

«البيئة العربية ترفض النقد وترفض الأفكار الخلاقة المغايرة. إن المثقف العربي مغبون غبناً مضاعفاً، فهو يعيش فريدا محاطا بالنبذ والعزلة» (دقوري، مرجع سابق، ص٢٢ وما بعدها).

ثمة إذن محرك نفسي ضاغط، شديد الوضوح في تجربة البليهي، اتسع مع اتساع تجربته وتقدمه في السن، فاستدعى أداة التكرار والتنبيه الدائم على الأفكار الرئيسة؛ لتوليد حالة من التفاعل تنقذ من الموت المعنوي.

لقد تجاوز هذا العامل تكرار الأفكار إلى تكرار التنبيه على نقاط القوة في تجربته الفكرية، ففي اللقاءات التي أجراها معه صبحي دقوري ونشرها في كتاب (التلقائية الإنسانية)، تحدث البليهي بلغة محتفية بمنجزه، قد لا نجد لها شبيهاً في أي تجربة فكرية عربية، من ذلك قوله:

«أعتقد أن كثيرين في أوروبا والغرب عموماً سوف يتفاجأون بمضمون كتبي، لأنني تناولت الفكر الغربي برؤية حتى الغرب نفسه لم يتنبه لأهمتها» (دقوري ص٢٣).

وكذلك قوله عن كتابه (التغيرات النوعية): «هو كتاب تحتاجه كل الأمم... هو أول كتاب في العالم يتناول هذه القضية الأساسية بوضوح وشمول وتفصيل» (السابق، ص٣٤).

ولم يقف عند حد ما نشر من الأفكار بل تجاوزها إلى مالم ينشر بعد، فقال ـ في السياق نفسه -: «رأيتَ ما هو منشور من الكتاب في مقالات لكن الأهم هو الذي لم ينشر بعد» (دقوري ص٢٣).

إنّ التكرار من هذه الزاوية حركة دفاعية، تقوم بها التجربة لمواجهة الموت المعنوي الذي يهدد التجارب القائمة في الأساس على النقد، ويمكن النظر إلى التكرار من هذه الزاوية على أنه موقف متأصل من السياق الثقافي العام الذي يتحالف على رفض مضامين هذه التجربة أو تجاهلها!

* * * *

أخيراً : تحاول هذه الإشارات السريعة التأكيد على إمكانية تقديم قراءة مختلفة لظاهرة التكرار في تجربة البليهي، هذه الظاهرة التي انطلق منها الكثيرون في التعبير عن مواقف متباينة منها، وقد أعادتها إلى ثلاثة عوامل رئيسة :

نمط الكتابة الذي يقوم - في تجربة البليهي - على أساس المساواة بين فعل الكتابة وفعل التفكير، وهو نمط مشغول بالتردد الدائم على الفكرة، وإطالة الوقوف عليها.

نوعية الأفكار التي تطرحها تجربته، وهي أفكار مغايرة، تتطلب الإلحاح والتأكيد بصورة دائمة.

العامل النفسي الذي ينتاب أصحاب التجارب الطويلة حين لا يجدون لما قدموا مقابلاً على مستوى التفاعل.

وتؤكد هذه الإشارات مجتمعةً أهمية تقديم قراءات متنوعة لهذه التجربة، تتجاوز المواقف المسبقة، المتصلة بالبليهي نفسه، أو بما استقر في الأذهان من أحكام وتوصيفات تتعلق بتجربته.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum